الفصل الأول

البيضاوى وتفسيره

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمة البيضاوى

نسبه ومولده :

هو: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن على الشيرازى البيضاوى[1]، وكنيته عند بعض المؤرخين (أبو الخير)[2]، الإمام العلَّامة القاضى، الفقيه، الشافعى، والبيضاوى نسبة إلى قرية (البيضاء) من أعمال شيراز[3].

وعلى الرغم من كثرة من أرَّخوا للبيضاوى فإن أحدًا لم يذكر سنة مولده، بل اكتفوا جميعًا بذكر سنة وفاته[4].

أساتذته :

لم تذكر أكثر المراجع التاريخية شيئًا عن أساتذة البيضاوى[5]، ولكن صاحب (كشف الظنون) يذكر أن البيضاوى حين قَدِمَ إلى (تبريز) استشفع الشيخ محمد بن محمد الكحتانى عند أميرها ليتولى القضاء بها، ولكن عبارة الشيخ الكحتانى للأمير فى التشفُّع للبيضاوى كان فحواها أن من يطلب القضاء، كمن يطلب سجادة فى نار جهنم.. فتأثر البيضاوى، فترك المناصب الدنيوية كلها، ولازم شيخه الكحتانى إلى أن مات الشيخ[6]، فهل يعنى ذلك أن البيضاوى لازم الشيخ طلبًا لعلمه أَمْ طلبًا لفضله وبركته وسلوكًا لطريقه؟ ولعلَّ مما يرجِّح

---

(1) انظر: هدية العارفين 1/ 462، كشف الظنون 1/ 186.

(2) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، مفتاح السعادة 2/ 103، شذرات الذهب 5/ 392.

(3) انظر: مفتاح السعادة 2/ 103، شذرات الذهب 5/ 392.

(4) انظر المراجع السابقة؛ وانظر: البداية والنهاية 13/ 309.

(5) انظر: هدية العارفين 1/ 462 – 463، مفتاح السعادة 2/ 103 – 105، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248 – 249، شذرات الذهب 5/ 392 – 393، البداية والنهاية 13/ 309.

(6) انظر: كشف الظنون 1/ 186.

obeikandl.com

الاحتمال الثانى أن فى البيضاوى نزوعًا إلى التصوف - وسنذكر هذا بعد إن شاء الله تعالى -، وكذا فإن شيخه يلقب عند بعض المؤرخين بـ (القطب الشيرازى) [1]، وإن كان هذا لا يمنع أن يجمع البيضاوى بين الأمرين عند شيخه؛ أعنى طلب علمه، وسلوك مذهبه الصوفى.

حياته العملية :

تُجمع المصادر التاريخية التى اطَّلعت عليها أن البيضاوى تولى منصب قاضى القضاة بشيراز[2]، وقد ترك البيضاوى (شيراز)، ورحل إلى (تبريز) طلبًا لمنصب القضاء فيها[3]، ولكنه انصرف عنه وعن سائر المناصب الدنيوية، وتفرغ لملازمة شيخه ولتصنيف مؤلفاته حتى مات[4]، وعلى ذلك فإن حياة البيضاوى العملية انحصرت فى أمرين: القضاء، ووضع التصانيف العلمية.

علمه وخُلقه :

يشهد كل الذين أرَّخوا للبيضاوى بعلمه وفضله، فيصفه صاحب (هدية العارفين)، بأنه: الإمام القاضى الفقيه[5].. وينقل صاحب (مفتاح السعادة) قول الإسنوى: بأن البيضاوى كان عالمًا بعلوم كثيرة[6].. كما ينقل عن التاج السبكى: أن البيضاوى كان إمامًا مبرزًا نظَّارًا[7].. ويقول عنه الداوودى فى (طبقات المفسرين): كان إمامًا علَّامة عارفًا بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق[8].. ويقول عنه صاحب (كشف الظنون) معللاً ما ذكر عن جودة

---

(1) انظر: البداية والنهاية 13/ 309.
(2) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، كشف الظنون 1/ 186، شذرات الذهب 5/ 392، البداية والنهاية 13/ 309.
(3) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 249، كشف الظنون 1/ 186.
(4) انظر: كشف الظنون 1/ 187.
(5) انظر: هدية العارفين 1/ 462.
(6) انظر: مفتاح السعادة 2/ 103.
(7) انظر: المرجع نفسه 2/ 104.
(8) طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

obeikandl.com

تفسيره: لأنه كان مالك زمام العلوم الدينية والفنون اليقينية[1].. وينقل عنه صاحب (شذرات الذهب) قول ابن قاضى شهبة: بأن البيضاوى عالم (أذربيجان) وشيخ تلك الناحية[2].. كما يصفه صاحب (البداية والنهاية) بأنه: الإمام العلَّامة قاضى (شيراز) وعالمها وعالم (أذربيجان) وتلك النواحى[3].

ويذكر بعض المؤرخين للبيضاوى قصة تنبِّئ عن سعة علمه وذكائه وقدرته على المناظرة والظفر فيها، فقد ذكروا: «أن البيضاوى دخل (تبريز) وناظر بها، وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عُقد بها عند الوزير لبعض الفضلاء، فجلس فى أُخريات القوم بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرِّس نكتة زعم أن أحدًا من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلها والجواب عنها، فإن لم يقدروا فالحل فقط، فإن لم يقدروا فإعادتها، فلما انتهى من ذكرها شرع البيضاوى فى الجواب؛ فقال: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها، فخيَّره بين إعادتها بلفظها أو بمعناها، فبُهت المدرِّس وقال: أعدها بلفظها... فأعادها ثم حلَّها، ثم بيَّن أن فى ترتيبه إيَّاها خللاً، ثم أجابه عنها، وقابلها فى الحال بمثلها، ودعا المدرِّس إلى حلها، فتعذَّر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إلى جانبه، وسأله: مَنْ أنت؟ فأخبره: أنه البيضاوى، وأنه جاء فى طلب القضاء بتبريز... فأكرمه، وخلع عليه فى يومه، ورده وقضى حاجته»[4].

أمَّا أخلاق البيضاوى فهى موضع تقدير كل من ترجموا له؛ فيذكر صاحب (مفتاح السعادة) أنه «كان صالحًا متعبدًا زاهدًا»[5]، وهو ما يذكره فى (طبقات المفسرين)[6].. ويضيف

---

(1) كشف الظنون 1/ 186.
(2) انظر: شذرات الذهب 5/ 392.
(3) انظر: البداية والنهاية 13/ 309.
(4) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248 – 249، كشف الظنون 1/ 186 – 187.
(5) مفتاح السعادة 2/ 103.
(6) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

بعض المؤرخين إلى ما سبق: «أنه كان خيِّرًا»[1].. ويقول عنه حاجى خليفة: «وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق»[2]. ومما ينبئ عن زهد البيضاوى وشدة تقواه لله ما سبق أن ذكرناه مِنْ أنَّ شيخه محمد بن محمد الكحتانى حين تشفَّع له عند أمير (تبريز) ليوليه القضاء بها ووصف مجلس القضاء بأنه مقدار سجادة فى جهنم، تأثَّر البيضاوى وترك جميع المناصب الدنيوية ولازم شيخه حتى مات[3].

عقيدته ومذهبه الفقهى :

كان الإمام البيضاوى يدين بمذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ ويقول عنه صاحب «كشف الظنون»: «مالك زمام العلوم الدينية والفنون اليقينية على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة»[4].

وقد صرح بمذهبه الاعتقادى هذا فى تفسيره غير مرة[5]، كما أنه ردَّ أقول الفرق الأخرى؛ فقد ردَّ أراء المعتزلة[6]، والكرامية[7]، والشيعة[8]، والخوارج[9]، والثنوية[10]، والمبتدعة[11]، والحكماء[12].

ويقول الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه (التفسير والمفسرون) عن تفسير البيضاوى: «قرر فيه الأدلة على أصول أهل السُّنَّة، وقد اختصر البيضاوى تفسيره من (الكشاف)

---

(1) انظر: شذرات الذهب 5/ 392.
(2) كشف الظنون 1/ 186.
(3) المرجع السابق 1/ 186.
(4) المرجع السابق 1/ 186.
(5) انظر: أنوار التنزيل 1/ 53، 68، 267، 2/ 245 وغيرها.
(6) انظر: الأنوار 1/ 18، 21، 22، 23، 68، 267، 317، 326، 517 وغيرها.
(7) انظر: الأنوار 1/ 68.
(8) انظر: الأنوار 1/ 272، 2/ 245.
(9) انظر: الأنوار 1/ 18.
(10) انظر: الأنوار 1/ 292، 314.
(11) انظر: الأنوار 2/ 325.
(12) انظر: الأنوار 1/ 49.

obeikandl.com

للزَّمخشرى، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحيانًا يذهب إلى ما ذهب إليه صاحب (الكشاف)، ومن ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:275]؛ حيث ذكر: أنَّ الجن لا تسلَّط على الإنسان إلَّا بالوسوسة - وهو ما ذهب إليه الزمخشرى[1].

وقد وجدتُ البيضاوى يقول فى تفسير هذه الآية الكريمة: «... (لا يقومون) إذا بُعثُوا من قبورهم (إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان) إلا قيامًا كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيُصرع، والخبط: ضربٌ على غير اتساق؛ كخبط العشواء... (من المس) أى الجنون، وهذا أيضًا من زعماتهم؛ أنَّ الجنى يمسه فيختلط عقله، ولذلك قيل: جُنَّ الرجل... وهو متعلق بـ (لا يقومون)؛ أى لا يقومون من المس الذى بهم بسبب أكل الربا، أو بـ (يقوم) أو بـ (يتخبط)؛ فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم، ولكن لأنَّ الله أربى فى بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم»[2]. فهو يرى أن آكل الربا يبدو فى نهوضه وسقوطه وترنُّحه مثل مَنْ مسَّه الشيطان فأصابه بالصرع كما يزعمون، ولكنَّ الحقيقة أن ما يبدو عليه إنما بسبب ما أرباه الله فى بطنه مما أكله من الربا. ولا أكاد أجد فى عبارة البيضاوى - هنا - ما ذكره شيخنا الذهبى؛ من أن الشياطين لا تتسلط على البشر إلَّا بالوسوسة، فعقيدة البيضاوى سالمة من شُبهة الاعتزال تمامًا، وما أسلفناه من دفاعه عن مذهب أهل السُّنَّة ورده على أصحاب المذاهب الاعتقادية الأخرى خير دليل على ذلك.

والبيضاوى شافعى من الناحية الفقهية، وقد نصَّت على ذلك كتب التراجم التى أُرِّخت له[3]، وقد أشار هو إلى ذلك فى غير موضع من تفسيره[4].

---

(1) التفسير والمفسرون 1/ 297 - 298.

(2) أنوار التنزيل 1/ 142.

(3) انظر: هدية العارفين 1/ 463، مفتاح السعادة 2/ 103، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، كشف الظنون 1/ 186، شذرات الذهب 5/ 392.

(4) انظر: أنوار التنزيل 1/ 28، 403، 472.

obeikandi.com

نزعته التصوفية :

لم تُشر كتب التراجم إلى تصوف الإمام البيضاوى، وكذا لم يذكر أحد أنه ألَّف شيئًا متصلاً بالتصوف، ولكنى أزعم أنَّ فى الرجل نزوعًا إلى التصوف مستندًا فى ذلك إلى دليلين؛ **أحدهما:** ما أورده فى تفسيره من عبارات تتردد على ألسنة المتصوفة؛ مثل: (العارف بالله) و(الواصل) و (نخوض لُجة الوصول) و (أهل المشاهدة) و (يراه عيانًا) و (يُناجيه شفاهًا)[1]... وهى كلها من مصطلحات أهل التصوف[2]. **وثانيها:** ما ذكره بعض المؤرخين من زُهده وتركه لجميع المناصب الدنيوية وملازمته شيخه الكحتانى حتى موته[3]. وقد عُرف ذلك الشيخ بأنه (القطب الشيرازى)[4]، ولفظة (القطب) من مصطلحات المتصوفة المعروفة[5].

وفاته :

اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاة البيضاوى؛ فمنهم من ذكر أنه تُوفِّى سنة 641هـ[6]، ومنهم من قال: بأنه تُوفِّى سنة 691هـ[7]، ومنهم من ذكر أنه تُوفِّى سنة 692هـ[8]، وقيل: سنة 696هـ[9]، ولكن أكثرهم على أنه تُوفِّى سنة 685هـ[10]. ولقد دُفن – كما أوصى – بجوار قبر شيخه الكحتانى بتبريز[11].

---

(1) انظر: أنوار التنزيل 1/ 9، 10، 11.
(2) انظر: الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسُّنَّة؛ ص67 – 85.
(3) انظر: كشف الظنون 1/ 186.
(4) انظر: البداية والنهاية 13/ 305.
(5) انظر: الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسُّنَّة؛ ص59.
(6) انظر: مفتاح السعادة 2/ 103.
(7) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 249.
(8) انظر: كشف الظنون 1/ 186.
(9) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(10) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، هدية العارفين 1/ 463، كشف الظنون 1/ 186، شذرات الذهب 5/ 393، البداية والنهاية 13/ 309.
(11) انظر: كشف الظنون 1/ 186.

obeikandl.com

مؤلفاته :

صنف الإمام البيضاوى فى علومٍ شتى؛ حتى يقول بعض المؤرخين له: «صنف التصانيف المشهورة فى أنواع العلوم»[1].. وينقل صاحب (شذرات الذهب) قول ابن حبيب: «تكلم كل الأئمة بالثناء على مصنفاته»[2].. وقد لاقت هذه المصنفات قبولاً واستحسانًا؛ فيقول حاجى خليفة عن البيضاوى: «صاحب التصانيف المشهورة البديعة»[3]، **وهاك ما ذكرته المراجع التاريخية من مؤلفات البيضاوى:**

1 – (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): الشهير باسم (تفسير البيضاوى)، وقد ذكره صاحب (هدية العارفين) باسمه الأول[4]، ويتفق معه فى ذلك صاحب (كشف الظنون)[5]، بينما يذكره الداوودى وطاش كبرى زاده باسم (مختصر الكشاف)[6]، وقد أثبت حاجى خليفة ما صنف على تفسير البيضاوى من الحواشى والتعليقات والمختصرات ما يربو على خمسين مصنفًا[7]، ويقول عنه الدكتور محمد حسين الذهبى: «وهو مطبوع عدة طبعات، ومتوسط فى حجمه»[8].

2 – (الإيضاح) فى أصول الدين: لم يذكره سوى الداوودى فى (طبقات المفسرين)[9].

3 – (تحفة الأسرار) فى شرح (مصابيح السُّنَّة) للبغوى : ذكره بهذا الاسم كلّ من

---

(1) مفتاح السعادة 2/ 103.

(2) شذرات الذهب 5/ 392.

(3) كشف الظنون 1/ 186.

(4) انظر: هدية العارفين 1/ 463.

(5) انظر: كشف الظنون 1/ 186.

(6) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

(7) انظر: كشف الظنون 1/ 188 – 194.

(8) التفسير والمفسرون 1/ 304.

(9) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

obeikandi.com

الداوودى وصاحب (هدية العارفين) [1]، بينما يذكره صاحب (مفتاح السعادة) باسم (شرح مصابيح السُّنَّة) [2]، وقد أشار إليه البيضاوى فى تفسيره[3].

4 – تذكرة فى الفروع: ولم يذكرها سوى صاحب (هدية العارفين) [4].

5 – رسالة فى موضوعات العلوم وتعاريفها: وقد انفرد صاحب (هدية العارفين) بذكرها[5].

6 – (شرح التنبيه): كذا ذكره ابن كثير فى (البداية والنهاية)؛ وذكر أنه يقع فى أربعة مجلدات[6].

7 – (شرح الفصول)؛ لنصير الدين الطوسى: ولم يذكره سوى صاحب (هدية العارفين)[7].

8 – شرح (الكافية) فى النحو؛ لابن الحاجب: وقد ذكره غير واحد من المؤرخين[8].

9 – (شرح المحصول): كذا ذكره ابن كثير فى (البداية والنهاية) [9]، ولعلَّه يعنى (المحصول فى علم الأصول) للفخر الرازى.

10 – شرح مختصر ابن الحاجب فى الأصول: ذكره الداوودى وطاش كبرى زاده[10].

---

(1) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، هدية العارفين 1/ 463.
(2) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104.
(3) انظر: أنوار التنزيل 1/ 367.
(4) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(5) المرجع السابق 1/ 463.
(6) انظر: البداية والنهاية 13/ 309.
(7) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(8) انظر: مفتاح السعادة 2/ 105، هدية العارفين 1/ 463.
(9) انظر: البداية والنهاية 13/ 309.
(10) انظر: مفتاح السعادة 2/ 105، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

obeikandl.com

11 – شرح المطالع فى المنطق: كذا فى (مفتاح السعادة) و(طبقات المفسرين) للداوودى[1].

12 – شرح (المنتخب) فى الأصول؛ للفخر الرازى: وقد ذكره غير واحد من المؤرخين[2].

13 – شرح (منهاج الوصول): ذكره الداوودى وطاش كبرى زاده[3].

14 – (طوالع الأنوار) فى علم الكلام: وقد ذكره بهذا الاسم صاحب (هدية العارفين)[4]، بينما يذكره الداوودى باسم (الطوالع فى الكلام)[5]، وأكثرهم يذكرونه باسم (الطوالع)[6]، وينقل صاحب (شذرات الذهب) عن السبكى: أنه أجلّ مختصر فى علم الكلام[7].

15 – (الغاية القصوى فى دراية الفتوى): كذا ذكره من المؤرخين غير واحد[8]، على حين يذكره صاحب (مفتاح السعادة) باسم (مختصر الوسيط فى الفقه) المسمَّى بـ (الغاية)[9].

16 – (الكافية) فى المنطق: وقد انفرد بذكره صاحب (البداية والنهاية)[10].

---

(1) انظر: المرجعين السابقين.

(2) انظر: البداية والنهاية 13/ 309، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، مفتاح السعادة 2/ 105.

(3) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، مفتاح السعادة 2/ 105.

(4) انظر: هدية العارفين 1/ 463.

(5) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248.

(6) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104، شذرات الذهب 5/ 393، البداية والنهاية 13/ 309.

(7) انظر: شذرات الذهب 5/ 393.

(8) انظر: هدية العارفين 1/ 463، البداية والنهاية 13/ 309، طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، شذرات الذهب 5/ 393.

(9) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104.

(10) انظر: البداية والنهاية 13/ 309.

obeikandl.com

17 – (لباب الألباب فى علم الإعراب): ولم يذكره سوى صاحب (هدية العارفين) [1].

18 – (مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام): كذا ذكره البيضاوى فى تفسيره[2]، بينما يذكره صاحب (هدية العارفين) باسم (مرصاد الأفهام فى مبادئ الأحكام) [3].

19 – (مصباح الأرواح) فى الكلام: كذا ذكره صاحب (هدية العارفين) [4]، بينما يذكره صاحب (شذرات الذهب) باسم (المصباح) [5] ولعلَّه يعنى به كتابًا آخر وهو (المصباح فى أصول الدين) وهو ما نذكره بعد.

20 – (المصباح) فى أصول الدين: وقد انفرد بذكره بهذا الاسم صاحب (مفتاح السعادة)[6]، ولعلَّه الذى يعنيه صاحب (شذرات الذهب) باسم (المصباح) [7].

21 – (منتهى المنى فى شرح أسماء الله الحسنى): ولم يذكره سوى صاحب (هدية العارفين) [8].

22 – (منهاج الوصول فى علم الأصول): كذا ذكره فى (هدية العارفين) [9]، وهو فى (البداية والنهاية) و(مفتاح السعادة) باسم (المنهاج فى أصول الفقه) [10]، بينما هو فى (طبقات المفسرين) للداوودى وفى أحد نقول (مفتاح السعادة) باسم (المنهاج فى الأصول) [11]،

---

(1) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(2) انظر: أنوار التنزيل 1/ 237.
(3) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(4) المرجع السابق 1/ 463.
(5) انظر: شذرات الذهب 5/ 393.
(6) انظر: مفتاح السعادة 2/ 104.
(7) انظر: شذرات الذهب 5/ 393.
(8) انظر: هدية العارفين 1/ 463.
(9) المرجع السابق 1/ 463.
(10) انظر: البداية والنهاية 13/ 309، مفتاح السعادة 2/ 104.
(11) انظر: طبقات المفسرين؛ للداوودى 1/ 248، مفتاح السعادة 2/ 105.

obeikandl.com

ويذكره صاحب (شذرات الذهب) باسم (المنهاج)؛ ويقول عنه: «ولو لم يكن له غير (المنهاج) الوجيز لفظه المحرر لكفاه»[1]، ثم ينقل أنه (مختصر من الحاصل)[2].

23- (نظام التواريخ): لم يذكره سوى صاحب (هدية العارفين) وذكر أنه (فارسى)[3]، ولا ندرى أهو باللغة الفارسية أَمْ مترجم عنها؟ إذ لم يذكر أحد أنه عثُر عليه.

(1) شذرات الذهب 5/ 392.
(2) المرجع نفسه 5/ 393.
(3) انظر: هدية العارفين 1/ 463.

obeikandl.com

النحاة وتفسير القرآن الكريم

التفسير وحاجته إلى النحو :

التفسير فى اللغة: الإيضاح والتبيين، قال صاحب (القاموس): «الفسر والتفسير: الإبانة وكشف المغطى»[1]، وفى (لسان العرب): «والتفسير: كشف المراد من اللفظ المشكل»[2].

وفى الاصطلاح: ما عرَّفه به أبو حيَّان بقوله: «عِلْمٌ يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، وتتمَّات لذلك»[3].

وقد ذكر السيوطى فى النوع الثامن والسبعين من كتابه (الإتقان فى علوم القرآن): «أنَّ التفسير يجوز لمن كان جامعًا للعلوم التى يحتاج إليها المفسر وهى خمسة عشر علمًا؛ وهى علوم: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والبيان، والمعانى، والبديع، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث، والموهبة»[4].

ومن الواضح أن وضع السيوطى علم النحو فى المرتبة الثانية مما يحتاج إليه المفسِّر من العلوم يدل - بما لا يدع مجالاً للشك - على أهمية النحو لكل مفسِّر.

ويقول ابن جزى الكلبى: «وأما النحو فلا بد للمفسِّر من معرفته، فإنَّ القرآن نزل بلسان العرب، فيحتاج إلى معرفة اللسان»[5].. ويقول السيوطى عن كتب إعراب القرآن:

---

(1) القاموس المحيط (فسر).
(2) لسان العرب (فسر).
(3) البحر المحيط؛ لأبى حيَّان 1/ 13.
(4) انظر: الإتقان فى علوم القرآن 4/ 477 – 479.
(5) التسهيل فى علوم التنزيل؛ لابن جزى 1/ 8.

openkandil.com

«ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى، لأنَّ الإعراب يميِّز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين»[1].

جهود النحاة فى تفسير القرآن الكريم :

وتظهر المعالم الأولى لهذه الجهود فى أول كتاب نحوى وصل إلى أيدينا وهو كتاب (سيبويه)؛ حيث أورد فى مواضع كثيرة منه تحليلاً لبعض آيات القرآن الكريم، على نحوٍ يمكن أن نعدّه بداية توجُّه النُّحاة إلى تفسير الكتاب العزيز[2].

ولقد أعقب ذلك اتجاه النحاة إلى اختصاص القرآن الكريم بمؤلفات تتناول تفسير ألفاظه وإعراب تراكيبه وتحليل معانيه وتوضيح مشكله، وقد عُرفت هذه الكتب باسم (معانى القرآن)؛ التى بدأها واصل بن عطاء [ت 93هـ]، واستمرت نحوًا من أربعة قرون، حتى ختمها محمود بن أبى الحسن النيسابورى القزوينى بكتاب (إيجاز البيان فى معانى القرآن)[3]؛ الذى أتمَّه سنة 553هـ[4].

وإذا كانت كتب (معانى القرآن) قد امتزج فيها تفسير الألفاظ وتحليل التراكيب وإعرابها بتوضيح المعانى والإبانة عنها، فقد ظهر تيارٌ آخر سعى لفصل الإعراب عن المعانى فيما عُرف باسم كتب (إعراب القرآن)، وذلك لما للإعراب من مقدرة على تمييز المعانى والإيقاف على أغراض المتكلمين[5]، ولقد امتد ذلك التيار قُرابة سبعة قرون؛ حيث

---

(1) الإتقان فى علوم القرآن 2/ 528.

(2) انظر: تحليله للآية 171 من سورة البقرة (سيبويه 1/ 212)، والآية 52 من سورة الأنبياء (سيبويه 2/ 147 – 148)، والآية 27 من سورة لقمان (سيبويه 2/ 144)، والآية 18 من سورة الجن (سيبويه 3/ 127) وغيرها.

(3) انظر: هذه الكتب ومؤلفيها فى (النحو وكتب التفسير) 1/ 112 – 130.

(4) انظر: كشف الظنون 1/ 171.

(5) انظر: الإتقان؛ للسيوطى 2/ 528.

obeikandl.com

بدأه قطرب محمد بن المستنير[1] [ت 206هـ]، حتى أحمد بن محمد الشهير بنشانجى زاده [ت 986هـ][2].

ولعلَّ كتب (إعراب القرآن) قد تحولت عند كثير من النحاة إلى كتب فى تفسير القرآن الكريم تفسيرًا كاملاً، فإذا كان الإعراب وسيلة إلى فهم القرآن، وطريقًا إلى تحليل تراكيبه، فإن ذلك يكون سبيلاً لإصابة المعنى الصحيح وعدم الزيغ فى تفسيره[3].

ومن هنا انطلق النُّحاة يفسرون القرآن تفسيرًا شاملاً لا يتوقفون فيه عند تفسير الألفاظ وتحليل التراكيب وإعرابها وتوضيح المعانى، وإنما ضمَّنوا كتبهم كافة مسائل العقيدة، والأحكام الفقهية، ورواية الأحاديث النبوية بإسنادها، والقراءات القرآنية متواترها وشاذَّها، وأفاضوا فى تفاسيرهم فى مسائل البلاغة وما تتضمنه من بيان ومعانٍ وبديع، ومع ذلك كله فقد بقيت المسحة اللغوية واضحة فى تلك التفاسير بعامة؛ ومن أشهرها: (الكشاف) للزَّمخشرى، و(البحر المحيط) لأبى حيَّان، و(أنوار التنزيل) للبيضاوى، و(إرشاد العقل السليم) لأبى السعود، وغيرها.

ولا تزال دراسات النّحاة وأبحاثهم حول القرآن الكريم تتوالى إلى عصرنا هذا[4]، تقرُّبًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بوضع النحو فى خدمة كتابه العزيز، وسعيًا إلى تأصيل تلك الأبحاث والدراسات بوضعها فى إطار منبعها النقى الذى منه انبثقت، ومرجعها الدقيق الذى إليه تستند، وما دراستنا فى نحو البيضاوى فى تفسيره إلَّا جهد متواضع فى هذا السبيل.

---

(1) انظر: الفهرست؛ لابن النديم، ص53.

(2) انظر: شذرات الذهب 8/ 409.

(3) انظر: النحو وكتب التفسير 1/ 148.

(4) انظر من هذه الدراسات: دراسات لأسلوب القرآن الكريم؛ للشيخ عبد الخالق عضيمة، وظواهر قرآنية فى ضوء الدراسات اللغوية؛ للدكتور البدراوى زهران، والحروف العاملة فى القرآن الكريم؛ للدكتور هادى الهلالى، والمصدر المؤول فى القرآن الكريم؛ للدكتور أحمد الهرميل، وأسلوب قد فى ضوء الدراسات النحوية والقرآنية؛ للدكتور إبراهيم الإدكاوى وغيرها.

تفسير البيضاوى

(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)

يكاد يجمع المؤرخون والباحثون فى كتب التفسير على أن تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوى يُعَدُّ واحدًا من أشهر التفاسير المختصرة الرائجة[1]، فقد ضمَّنه صاحبه كثيرًا من الفوائد التى تتصل بعديدٍ من علوم الشريعة وعلوم العربية وسائر المعارف الأخرى؛ فالإمام البيضاوى واحد من أئمة أهل السُّنَّة، متبحِّر فى فروع الشريعة المختلفة؛ كالعقيدة والفقه وأصوله وغيرها، كما أنه عارف بعلوم العربية، وله فى ذلك كله مؤلفات عديدة شاهدة بمكانته فيها[2].

وقد حدَّد البيضاوى المنهج الذى سار عليه بقوله عنه فى مقدمته: «يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السَّلف الصالحين، وينطوى على نكتٍ بارعة ولطائف استنبطتها أنا ومن قبلى من أفاضل المتأخرين وأماثل المحقِّقين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة والمعزوة إلى القراء الثمانية المشهورين والشواذ المروية عن القراء المعتبرين»[3]. أى أن منهجه فى تفسيره يقوم على التلخيص من كتب التفسير السابقة عليه، مع الاجتهاد والإضافة إلى ما وصلوا إليه.

فقد لخَّص مِنْ (الكشاف) للزَّمخشرى ما يتعلَّق بالإعراب والمعانى والبيان، ولخَّص من (مفاتيح الغيب) للفخر الرازى ما يتعلَّق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب الأصبهانى ما يتصل بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات ، وضم إلى ذلك كله ما ورى زناد

---

(1) انظر: التفسير والمفسرون 1/ 297، النحو وكتب التفسير 2/ 874.

(2) انظر: مؤلفاته؛ ص 11 من هذا الكتاب.

(3) أنوار التنزيل 1/ 3.

obeikandi.com

فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة[1].

ولقد جمع فيه البيضاوى بين التفسير والتأويل على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السُّنَّة، ومع أنَّ تفسيره يُعَدُّ اختصارًا لكتاب (الكشاف) للزَّمخشرى إلَّا أنه ترك ما فيه من آراء اعتزالية، وهو أحيانًا يهتم بالقراءات إلَّا أنه لا يلتزم المتواتر منها، فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية دون توسُّع واستفاضة[2].

فالبيضاوى يتعرض للقراءات، وهو يروى المشهور منها، وتشمل عنده القراءات السبع المعروفة، بالإضافة إلى قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمى؛ وهو أحد القراء العشرة[3]، كما أنه يروى عن القراء المعتبرين من أصحاب القراءات الشاذة بسعيٍ إلى توجيه كل منهما دون تخطئة لقارئ أو بتهجم على قراءةٍ بنقدٍ لاذع أو بعبارةٍ قاسية[4].

أمَّا عن النحو – وهو موضوع بحثنا – فمع اعتماد البيضاوى فيه على الزَّمخشرى فى (الكشاف) بصورة واضحة، إلا أنه – كما سنرى – لا ينقل عنه نقلاً حرفيًّا، ولا يتابعه فيه دائمًا، بل إنه قد يرى غير قول الزَّمخشرى، وقد يأتى بأقوال لا نجدها عند الزَّمخشرى فى كتابه[5].

---

(1) انظر: كشف الظنون 1/ 186.

(2) انظر: التفسير والمفسرون 1/ 298.

(3) هو: أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمى؛ أخذ الحروف عن الكسائى، وهو إمام البصرة، تُوفِّى سنة 250هـ [انظر فى ترجمته: غاية النهاية 2/ 386].

(4) انظر: بعض عبارات الزَّمخشرى فى التهجم على القُرَّاء فى الكشاف 1/ 311، 2/ 54 وغيرهما، وانظر الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف 2/ 53.

(5) انظر: النحو وكتب التفسير 2/ 874 وما بعدها.

obeikandl.com

مكانة تفسير البيضاوى :

لهذا التفسير – مع وجازته – مكانة متميزة عند المؤرخين والعلماء، وقد أطراه كثير منهم وأثنوا عليه[1]، وخير ما قيل فى عُلُوِّ منزلته ما قاله صاحب (كشف الظنون)؛ إذ يقول: «وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن، غنيٌّ عن البيان... فجلا فيه بين الشك عن السريرة، وزاد فى العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشى :

أولو الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يُتْلى

ولكن كان للقاضى يد بيضاء لا تُبلى

... فكان تفسيره يحتوى فنونًا من العلم وعرة المسالك، وأنواعًا من القواعد المختلفة الطرائق... ثم إن هذا الكتاب رِزْقٌ من عند الله سبحانه وتعالى بحُسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية»[2]. ثم يذكر حاجى خليفة أكثر من خمسين مصنفًا تدور حول تفسير البيضاوى، ما بين مختصر وتعليقة وحاشية[3].

ويقول الدكتور الذهبى فى (التفسير والمفسرون) عن هذا التفسير: «فضمَّنه نكتًا بارعة ولطائف رائعة واستنباطات دقيقة، كل هذا فى أسلوبٍ رائع موجز، وعبارة تدق أحيانًا وتخفى إلَّا على ذى بصيرة ثاقبة وفطنة نيرة... وجملة القول: فالكتاب من أمهات كتب التفسير التى لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى ويقف على أسراره ومعانيه»[4].

ويذكر صاحب كتاب (النحو وكتب التفسير)– فى التدليل على مكانة تفسير البيضاوى–: أنه ثانى كتب التفسير بعد (الكشاف) الذى تنول بالتحشية والشرح والتعليق، وأنه واحدٌ من خمسة تفاسير تُعَدُّ أكثر كتب التفسير رواجًا، وأنه الثانى فيها بعد (الكشاف)، ويليهما بعد

---

(1) انظر: مفتاح السعادة 2/ 103، هدية العارفين 1/ 462، شذرات الذهب 5/ 392 وغيرها.
(2) كشف الظنون 1/ 187.
(3) المرجع السابق 1/ 188 – 194.
(4) التفسير والمفسرون 1/ 298، 303 – 304.

openkandil.com

ذلك: (تفسير الجلالين)، و(مدارك التنزيل) للنسفى، و(إرشاد العقل السليم) لأبى السعود[1].

إنَّ هذه المكانة العالية التى حظى بها تفسير البيضاوى تدعونا إلى ضرورة العودة إليه بالبحث والدراسة لنبين أوجه تمييزه وأسرار قبوله ورواجه، ومن هنا كان منطلقنا لدراسة الجانب النحوى فيه.

(1) انظر: النحو وكتب التفسير 2/ 994.

obeikandl.com